المبحث الأول

مفهوم الحداثة وتعريفها

الحداثة في اللغة: هي مصدر الفعل حَدَثَ، نقول حدث الشيء يحدثُ حدوثاً وحداثة، وأحدثه هو، فهو مُحْدَثٌ وحديث، وكذلك استحدثه. وحَدُثَ نقيض قَدُمَ، ولا يقال حَدُثَ بضم الدال إلا مع قَدُمَ، والحديث نقيض القديم، والحدوث: كون الشيء لم يكن وأحدثه الله فحدث ، وحدث أمر، أي وقع، وحِدثان الأمر بالكسر: أوله وابتدائه، وحَدَثان الدهر نُوَبُه. وحداثة السن: الشباب وأول العمر. ومحادثة السيف جِلاؤه. ورجل حَدَثُ السِّنِّ وحديثها بيِّن الحداثة والحدوثة. وكل فَتِيٍّ من الناس والدواب والإبل حَدَثٌ، والأنثى حَدَثَةٌ، والحديث: الجديد من الأشياء[1].

هذا في اللغة، أما في الاصطلاح فليس من السهل ذكر تعريف محدد للحداثة، وذلك لأسباب كثيرة، منها:

١- شمولية الحداثة، فهي شاملة لجميع مناحي الحياة من سياسة، وفكر، وأدب، واقتصاد، وغيرها. فعند البحث تجد أن السياسي يعرفها من وجهة نظر سياسية، والاقتصادي من وجهة نظر اقتصادية، والمفكر كذلك، فلا تجد في الغالب تعريفاً شاملاً لكل تلك الجوانب، مشتملاً عليها، بحيث يعطي صورة متكاملة عن المُعرَّف.

٢- أن أغلب التعريفات تكون انتقائية، فحين يعرفها البعض بقوله: ((هي امتداد للتحول من افتراض نقص أو غياب معرفي في الماضي،

---

[1] ينظر: لسان العرب،ابن منظور، ٥٨٢/١، والقاموس المحيط،محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ١٣٧/١.

ويعوض عن هذا النقص أو هذا الغياب إما بنقل لفكرٍ ما أو معرفةٍ ما، من هذه اللغة الأجنبية أو تلك، وإما بالابتكار والإبداع. والحداثة هي إذن قول ما لم يعرفه موروثنا، أو هي قول المجهول، من جهة، وقبول بلا نهائية المعرفة، من جهة ثانية))[١]، ويعرفها آخر بأنها ((تعني ما هو حي وحر في الحياة، هي حالة وموقف، الفنان الحديث هو صاحب الوعي الحديث، هو وعي يختص بالأفراد والجماعات التي تقود تطور الإنسان وتصنع المستقبل))[٢]؛ يراها البعض الآخر بصورة مغايرة تماماً، فيُعرِّفها: ((اتجاه فكري أشد خطورة من الليبرالية والعلمانية والماركسية، وكل ما عرفته البشرية من مذاهب واتجاهات هدامة، وذلك أنها تتضمن كل هذه المذاهب والاتجاهات)) [٣].

٣- وجود مصطلحات قد يستخدمها البعض بمعنى الحداثة أو على الأقل للدلالة على جزء من مفهوم الحداثة، والبعض يراها مختلفة عن معنى الحداثة، فأدى ذلك إلى وجود تداخل في المصطلحات، أو فوضى مصطلحات إن صح التعبير.

فالمعاصرة والجدة والتجديد والتحديث، نجد هذه المصطلحات تتداخل مع الحداثة تارة، وتفترق أخرى. فالمعاصرة مثلاً يراها البعض ((اتجاه يقدم العقل على النقل، ويجعل العقل مصدراً من مصادر الدين ومُحَكَّماً في النصوص)) [٤]

---

[١] الثابت والمتحول، أدونيس، ١٨/١.

[٢] مجلة مواقف ع٢٧، عام ١٩٧٤م، حليم جرداق، ص١٧.

[٣] الحداثة والتراث، محمد مصطفى هدارة، ص٢.

[٤] الاتجاهات العقلية الحديثة، ناصر عقل، ص١٧.

أو هي ((وجهة نظر في الدين مبنية على الاعتقاد بأن التقدم العلمي، والثقافة المعاصرة تستلزم إعادة تأويل التعاليم الدينية التقليدية على ضوء المفاهيم الفلسفية والعلمية السائدة)) [١]. فهي بهذه التعاريف، وتعاريف مشابهة أخرى[٢]، تتطابق مع الفكر الحداثي بالنسبة لمسألة العقل. ولكننا نجد بعض الحداثيين يؤكد أن الحداثة تختلف عن المعاصرة، وذلك ((لأن من شروط الحداثة أن تكون خروجاً على المألوف بخلاف المعاصرة أو العصرانية))[٣] .

وكذلك مصطلح التجديد والجديد والجِدَّة، فبعض كبار منظري الحداثة يعتبر ((معيار الجديد يكمن في الإبداع والتجاوز، وفي كونه مليئاً لايستنفذ.... وإن دلالة التجديد الأولى في الشعر هي طاقة التغيير التي يمارسها بالنسبة إلى ما قبله وما بعده، أي طاقة الخروج على الماضي من جهة، وطاقة احتضان المستقبل من جهة ثانية))[٤]. وتجد آخرين من رموز الحداثة يعرف الحداثة بأنها: ((عبارة عن الانقطاع عما هو تقليدي، والشروع بالابتكار في حلقات أكثر حدة وحسماً من مظاهر التجديد))[٥]. فيفرق بينها وبين التجديد، ونرى ذلك التفريق بين مصطلح الحداثة وبين المعاصرة والتجديد واضحاً في قول بعضهم: ((إن الحداثة كمفهوم ينطلق من جوهر عملية التغيير، قد يكون مفهوماً أوسع من مفهوم المعاصرة، وهو مفهوم زمني أكثر من مفهوم الحداثة، فقد يكون هناك

---

[١] العصرانيون، محمد حامد الناصر، ص٦.

[٢] ينظر: العصرانية في حياتنا الاجتماعية، عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، ص٢٠، والموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العلمية للشباب الإسلامي، ص٧٩٦/٢.

[٣] في قضايا الشعر العربي المعاصر، دراسات وشهادات، محمود أمين العالم وآخرون، ص٢٨.

[٤] مقدمة للشعر العربي، أدونيس، ص ٩٩،١٠٠.

[٥] مجلة الدستور، الاثنين ١٩٩٠/٥/٨م ، محمد جاسم الموسوي، ص٤٠.

كاتب معاصر لكنه غير حديث، بمعنى أن منطلقاته ثابتة، ومن الممكن أيضاً أن يكون هناك كاتب سابق علينا لكنه تبنى التغيير كمنطلق، وتبنى التجاوز فهو إذاً كاتب أكثر حداثة من كاتب آخر قد يكون معاصراً لنا لكنه تقليدي في منطلقاته ورؤيته. الحداثة أيضاً مفهوم أوسع من مفهوم التجديد، فالتجديد رغم حتميته لكل أدب حديث لكنه خاص بإضافة محدودة وصغيرة، بينما الحداثة إضافة خاصة بروح عصر بأكمله، خاصة باستشراف مستقبل هذه اللحظة. إن الحداثة أشمل من التجديد حيث تنطوي على تجديدات عديدة ليس في الشكل فقط، وإنما تجديدات في الرؤية وفي المنطلق)) [١]. ويبدو أن اللذين يفرقون بين المعاصرة والحداثة هم من ينظرون إلى المعاصرة بمدلولها الزمني، أي كون الفكر هو من هذا العصر، فيرونها تختلف عن الحداثة التي يرون من ضرورياتها الإتيان بشيء لا على مثال سابق، والتغيير في المنطلقات والرؤى، فالحداثة: ((تعني إيجاد ما لم يكن موجوداً من قبل، ويضل هذا حديثاً ما بقي فتياً غير مألوف، أي ما بقي في منأى عن فعل العادة والقِدَم، محتفظاً بجدة دائمة. والحداثة بهذا المعنى أعم من المعاصرة، وذلك أن الأخيرة ترتبط بالعصر، أي بالزمن فحسب، غير أنها قد تقترب من الأولى إن عُنِي بها تمثل القيم السائدة في العصر الحديث، والصدور عنها في تعبير جديد لم يكن موجوداً من قبل))[٢]. ونركز على القول: (إن عُنِي بها)، فنحن نجد أن هذه المصطلحات من الممكن أن يعني بها كل شخص شيئاً مختلفاً عما يعنيه بها شخص آخر، فهي مصطلحات مطاطة -إن صح التعبير- وهذا يفسر التداخل الحاصل في هذه المصطلحات. وبالنسبة لمصطلح التجديد،

---

[١] مجلة الأسبوع العربي ١٩٨٨/٩/٢٦م، صبري حافظ، ص٦٨.

[٢] الحداثة في النقد الأدبي المعاصر، عبد المجيد زراقط ، ص١٥.

أعتقد أن التداخل حاصل مما يفهمه كل شخص من هذا المصطلح أيضاً، فمن يفهمه على أنه الإتيان بالأمر الجديد الذي يختلف عن الأمور المعتادة والتقليدية. يعتبر التجديد مرادف للحداثة، ومن يعتبر التجديد بمعنى تطوير وتحديث ما هو موجود، فهو يميز بين التجديد والحداثة. على ما يفهمه كثير من مفكري الحداثة من حداثتهم.

ومن بين تلك المصطلحات مصطلح (التنوير)، أو (الفكر التنويري)، وهذا المصطلح من أوائل المصطلحات التي كان يعبر بها عن فكر الحداثة، أو الفكر الحديث، وكان الكلام يدور آنذاك بين حملة (الفكر التنويري) وبين حملة (الفكر التقليدي) كما يسميان، أو بين القديم والجديد.[١] وهذه مسألة ثابتة لاخلاف فيها، ولكنك تجد أن من الحداثيين من يتكلم عن ذلك الفكر (التنويري) فينتقده، ويقول: ((لم يستطع التنويريون أن ينقطعوا عن السلفيين، بإنتاج وعي تأريخي علمي بالنصوص الدينية ذاتها، وظلت الرؤية اللاتاريخية للنصوص الدينية هي الرؤية المسيطرة...، ولا شك أن هذا القصور في الانجاز التنويري ساهم- في إطار عوامل موضوعية اجتماعية اقتصادية – في تمكين الخطاب الديني من استعادة الأرض التي فقدها))[٢].

ونجد أيضاً مصطلح (الإبداع)، فنجد له تعاريف عندهم مقاربة لمعنى الحداثة، فهو: ((خلقُ جديدٍ، خروج عما هو مألوف وغريزي وسائد، وتمرد عليه، أو تجاوز له، وسموٌّ به)) [٣]، وهو: ((القدرة على

---

[١] ينظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين ، ج٢ من ص٢٢٠ _٢٦١، وينظر: الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة.

[٢] قضايا وشهادات،كتاب ثقافي دوري،هيئة التحرير: عبد الرحمن منيف،وجابر عصفور وآخرون،٣٨٦/٢.

[٣] التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، محمد عابد الجابري، ص ١٢٦، ١٢٧.

تركيب نص مغاير، يخترق الجاهز المغلق المستبد)) [١]، وهو أيضاً ((التخطي والتجاوز والثورة)) [٢]، ويعتبرون أن من شروط الإبداع ((أن يكون فوق السائد والمألوف، وهو يرتقي بمقدار تجاوزه لظروفه، مثلما أنه يتناقض بمقدار تماثله مع تلك الظروف)) [٣]، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك تعاريف أخرى للإبداع، ولكنها تذكره من جوانب أخرى تختلف عما نتحدث عنه [٤].

وحتى لفظة (حديث) و(تحديث) التي من المفترض أن لا يوجد بينها وبين معنى الحداثة فرق- ولاسيما أنهم دائماً ما يصفون أدبهم بالحديث- نجد بعض الحداثيين يذكرها على أنها مرحلة من مراحل الحداثة، ويعتبرها شيئاً- وإن كان قريباً من المعنى- يختلف عن معنى الحداثة، فيقولون: ((إن لحظة الحداثة قرينة لحظة التحديث، قد لا تتطابق اللحظتان تماماً، ولكن مابينهما من علاقة متعددة الأبعاد تجعل من انبثاق إحدى اللحظتين علة، أو بشارة، أو علامة على انبثاق اللحظة الثانية، ولا يمكن لمجتمع أن تتطور أدوات إنتاجه المادي، في مستويات متعددة، دون تحديث يحمل بذرة الحداثة في طياته على نحو ذاتي من داخل المجتمع، وعلى نحو يتجاوز الداخل إلى الخارج، حيث ينفتح المجتمع على غيره مهما كان حذره، ويتقبل حداثة الآخر، كما تقبل وسائل تحديثه، وإذا كانت لحظة التحديث ترتبط بتغير أدوات الإنتاج المادي وتغير علاقاته؛ فإنها تعني-من ثَمَّ- ما ينتج عن هذا التغيير، أو يوازيه على مستوى عمليات

---

[١] حداثة السؤال بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة، محمد بنيس، ص١١.

[٢] أسئلة الشعر في حركة الخلق وكمال الحداثة وموتها، منير العكش، ص٢٢٧.

[٣] صحيفة عكاظ، ع٧٥٦٦، ١٤٠٧/٦/١٦هـ، عبد الله الغذامي، ص٧.

[٤] ينظر: مبادئ الإبداع، د.طارق سويدان و د.محمد أكرم العدلوني، ص١٧.

إنتاج المعرفة وعلاقاته على نحو يؤدي إلى تولد تناقض بين أبنية المجتمع السائد وما تتطلبه أدوات التحديث وعلاقاته، مادياً ومعرفياً، من أبنية تستجيب إليها وتتلاءم معها))[1]. فهنا نرى التحديث مرحلة وطريق مؤدي إلى الحداثة، وأعتقد أن هذا ناتج عن اعتبار التحديث بمعنى التحديث المادي، أي في الجانب التقني وفي جانب أدوات الإنتاج وما إلى ذلك، والحداثة تكون في الجانب المعرفي.

وهكذا نرى المصطلحات تتداخل فتطابق مع الحداثة تارة وتختلف أخرى، وتتطابق فيما بينها تارة وتختلف أخرى، وتدل على جزئية ما مرة، وتدل على أخرى مرة أخرى. وأعتقد أن هذا الأمر يكون مقصوداً أحياناً، بقصد الإبهام، أو بقصد إخفاء المصطلح الذي لا يراد ذكره – لصعوبة زمانية أو مكانية– وذكر مصطلح أكثر قبولاً منه، ولكنه لا يكون بتلك المقاصد أحياناً أخرى، وإنما يحدث بسبب فهم مختلف لهذه المصطلحات عند من يعرِّفها، لاسيما وأنه لا يوجد مرجع ثابت للرجوع إليه في حسم الخلاف حول تلك المصطلحات، فهي ما تزال محل نظر.

ولكن رغم كل ما مر ذكره من أسباب إلا أننا نلحظ شيئاً مشتركاً، أو بعض الأمور المشتركة عند كل من يتحدث عن مصطلح الحداثة، فهي–أي الحداثة– وإن كان لا يوجد لها تعريف جامع مانع، أو تعريف واحد لا يختلف فيه الباحثون، إلا أن ذلك لا يمنع من تعريفها بالوصف، أو بذكر أهم صفاتها التي نجدها عند كل من يتحدث عنها، وإن اختلفوا في التفاصيل الأخرى، ومن أهم هذه الصفات: هي أن هذا الفكر يدعوا للجديد الذي يكون على حساب القديم، وأنه يجعل من العقل هو المرجع في الحكم

---

[1] **قضايا وشهادات ٢/٣٦٨، ٣٦٩.**

على الأمور، وأنه يدعو للتغيير المستمر، باعتقاد أنه ضرورة وقانون كوني لا مفر منه. فالحداثة عندهم ((تنحاز دائماً إلى أحد طرفي ثنائية مستمرة عبر الزمن، بين ما هو جاهز مُعد مكرس، شائع، مقبول اجتماعياً على المستوى العريض، وبين ما هو متمرد، داحض، مقلق، هامشي، يسعى إلى نظام قيمي مستعص بطبيعته على التحقيق..... الحداثة هي نقيض المطلق، والمطلق جامد وثابت ونهائي ومتعال..... الحداثة تساؤل مستمر الوهج عن الواقع، ودحض لهذا الواقع))[١].

ولهذا يعتبرون أن عدو التجديد هو: ((التشبث بالقيم الماضية المستنفذة، العادة التي تؤدي إلى السهولة والتكرار والآلية والرتابة وضمور الوعي، وانعدام الدهشة، العادة التي تنكر الزمن وتنكر التغيير))[٢]. والنصوص التي تركز على الآتيان بالجديد عند الحديث عن الحداثة كثيرة جداً، ذكرنا شيئاً قليلاً منها في النصوص السابقة. أما مسألة العقل وكونه مرجعاً في معرفة حسن الأشياء وقبحها وصحتها وفسادها، فهذا الأمر لا يختلف فيه الحداثيون، ويرونه من مرتكزات الحداثة، وهذا الأمر قد تم تثبيته مع مفكري العشرينات في القرن الماضي، ((فالبداية الحقيقة للحداثة من حيث هي حركة فكرية شاملة، قد انطلق يوم ذاك، فقد مثل فكر الرواد الأوائل قطيعة مع المرجعية الدينية والتراثية كمعيار ومصدر وحيد للحقيقة، وأقام مرجعين بديلين، العقل والواقع التاريخي وكلاهما إنساني، ومن ثم تطويري))[٣]. وهذا الأمر، أي الإتيان بالجديد

---

[١] مجلة فصول مجلد ٤، ع٤، ١٩٨٤م، إدوارد الخراط، ص٥٧، ٥٨.

[٢] مقدمة للشعر العربي، ص١٠١.

[٣] الحداثة في ميزان الإسلام، عوض القرني، ص١٨، ١٩.

والتحكيم المطلق للعقل، ينتج عنه ويتبعه صفة أخرى للحداثة، وهي: (الإنسانية)[١]كما يسمونها، فالإنسان ((أصبح يقع في مر كز الكون))[٢].

فالحداثة عندهم هي: ((موقف معرفي أدى إلى تغيير نظام الحياة، وهذا الموقف المعرفي يقوم على أن الإنسان هو مركز العالم ومصدر القيم، وعلى أن المعرفة اكتشاف للمجهول الذي لا ينتهي، وعلى أن مصدر القيم ليس غيبياً، وإنما هو إنساني، وهذا ما يتناقض مع الموقف المعرفي الإسلامي بدون تأويل جديد، أو قراءة جديدة له))[٣].

فهذه هي أهم الصفات التي تميز الحداثة كفكر عن غيرها من الأفكار، فهي فكر يدعو للتجديد في جميع المجالات، وعدم التقيد بالمألوف والسائد، جاعلاً من العقل أداة ومرجعاً في حل المشكلات وتقييم الأشياء، وبالتالي أصبح الإنسان قطب الرحى، وعليه مدار الأمر كله، يصنع إرادته وحريته ويطوع الطبيعة. فهذا تعريف للحداثة بطريقة الوصف. أما من يبحث عن تعريف واحد متفق عليه، ويكون شاملاً لمسائل الفكر الحداثي، وبكلمات أخرى، من يبحث للحداثة عن تعريف جامع مانع، فأعتقد أنه لن يجد ما يبحث عنه، لأنه ببساطة غير موجود.

وينبغي الإشارة إلى مسألة تخص المصطلحات التي ذكرت أنها تتداخل مع مصطلح الحداثة، وهي أن هذه المصطلحات رغم ما يبدو من الوهلة الأولى من أنه يسهل استخدامها، أو استخدام الواحدة مكان الأخرى على حسب ما يفهمه المتكلم منها، إلا أن هذه المصطلحات لا تخلو من

---

[١] ينظر: قضايا وشهادات ١٠٢/٢

[٢] المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[٣] مجلة المنتدى ع٨٧، ربيع الأول ١٤١١هـ، أدونيس، ص٦.

خطورة عند التعامل معها. وخصوصاً تلك المصطلحات التي نبتت في تربة غير تربتنا، لأنها تكون في الغالب مليئة بمضامين ومفاهيم وقيم قد تكون -كلها أو بعضها- غير قيمنا، ((فالمصطلحات التي نواجهها اليوم تختلف اختلافاً كبيراً عن المصطلحات التي واجهها أسلافنا، لأن المصطلحات في عصرنا ليست ألفاظاً لغوية وأوصافاً لعلم من الأعلام، وإنما هي مصطلحات تكمن وراءها منظومة حضارية تختلف في مقدماتها ونتائجها عن منظومتنا الحضارية ونمطها الاجتماعي)) [١].

وينبغي أن اذكر هنا واحداً من أهم مناهج الحداثيين، والذي كثيراً ما يعتمده الحداثيون في قراءتهم للنصوص، ويبنون آراءهم على هذا المنهج، وهذا المنهج هو:(البنيوية)، التي هي في الأصل ((من الاتجاهات الفكرية الفرنسية، التي حلت محل الوجودية، وشاعت على ألسنة المفكرين في كل مكان، وهي تهتم بدارسة البناء الذي تعتمد عليه العمليات الفكرية، سواء من ناحية البناء النفسي، أو البناء اللغوي))[٢]. ويعرفها بعضهم بقوله: ((البنيوية مذهب فكري معاصر، يحاول رؤية المجتمعات والأعمال الفنية واللغة والأدب من خلال الأبنية التي يتألف منها)) [٣]. ويقول عنها بعض الحداثيين بأنها ((ليست فلسفة، لكنها طريقة في الرؤية، ومنهج في معاينة الوجود؛ ولأنها كذلك فهي تثوير -على حد قوله- جذري للفكر وعلاقته بالعالم، وموقعه منه...، تُغَيِّر الفكر المعاين للغة والمجتمع والشعر، وتحوله إلى فكر متسائل، قلق، متوثب، متقصٍ، فكر جدلي شمولي في رهافة الفكر الخالق، وعلى مستواه من اكتمال التصور،

---

[١] المذهبية الإسلامية والتغير الحضاري، د.محسن عبد الحميد، ص١١٤.

[٢] مجلة الفيصل ع١٥٨، شعبان ١٤١٠هـ، عبد الفتاح الديدي، ص٥٣.

[٣] مجلة الفيصل، ع٤٧، ١٤١٠هـ، صلاح عبد الصبور، ص٥٩.

والإبداع... بهذا التصور، وبالإصرار عليه يكون هذا الكتاب طموحاً إلى تغيير الفكر العربي في معاينته للثقافة والإنسان والشعر، إلى نقله من فكر تطغى عليه الجزئية والسطحية والشخصانية إلى فكر يترعرع في مناخ الرؤية المعقدة، المتقصية، الموضوعية، والشمولية والجذرية في آن واحد))[١].

ومن مفاهيم البنيوية، (إعادة كتابة القارئ للنص)، أو ما يسمى بـ(النص المفتوح)، أو (موت المؤلف)، والذي يعني أن لكل قارئ للنص أن يفهمه من وجهة نظره. فالنص الواحد يحتمل من المعاني بعدد قارئيه، ولا يمكن إجبار القارئ على فهم واحد للنص ((فالنص الواحد يمكن أن يفهم بوجوه مختلفة ومتعددة بعيداً عن مراد قائله)) [٢]، لا بل إن منهم من يعد الخلط بين النص وقائله مشكلة تواجه القارئ، إذ ((يتصل بمشكلة الشخصية في القصة مشكلة الذي يقدمها، فمن هو خالق القصة: هناك سلسلة من الإجابات المتعددة عن هذا السؤال، أقربها إلى المألوف ما يقوله الناس عادة من أن خالق القصة هو المؤلف، هو هذا الشخص بالذات المسمى بكذا، والذي يمسك بالقلم ويكتب قصة كذا، ومن هنا يجيء الخلط بين شخص المؤلف وفنه، الذي لا يعتبر في هذه الحالة سوى تعبير عن (الأنا)، أو عن الذات الخارجية على القصة والمستقلة عنها))[٣]، فهم يرون أن ((الكاتب هو أم (أبو) النص، وهذه وظيفته، وهي وظيفة لا يجوز أن تمتد إلى أبعد من ذلك لتصبح ضربة لازب على النص، بحيث لا يكون له وجود مستقبلي إلا بها، طبعاً لا، فالنص بعد إنشائه يستقل

---

[١] جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر، كمال أبو ديب، ص٧، ٨.

[٢] صحيفة الندوة ع٢٦،٩٤٥٢/٧/١٤١٠هـ،عبد السلام المسدي،وزير تعليمٍ عالٍ سابق بتونس، ص١٥.

[٣] نظرية البنائية في النقد الأدبي، صلاح فضل، ص٣٣٤.

بوجود خاص به، ويستطيع أن يكون حراً تام التحرر عن صاحبه....، ومن هنا نلمس مدى استطاعة النص على الاستقلال في وجوده، وهذا ما يقضي على مفهوم (نية المؤلف)؛ لأن نية المؤلف قيمة ثانوية لا تقل على ملاحقة النص إذا ما أراد النص الشرود عنها)) [١]. ولا يخفى على عاقل خطورة هذا المفهوم الذي يتيح لكل قارئ أن يفسر النص الذي يقرؤه على هواه، لاسيما إذا كان الداعي إلى هذا المنهج، أو القارئ الذي يستخدم هذا المنهج، لا يفرق بين نص شرعي أو غير شرعي. والانتقادات التي وجهت إلى هذا المفهوم كثيرة، ومنها ما صدر من نقاد غربيين، ومنهم الناقد الأمريكي(جوناثان كولر)، فهو يقول أثناء حديثه عن مفهوم (النص المفتوح): ((إن لهذا المفهوم أبعاده وتأثيراته الكبيرة، وذلك للتباين الفكري بين قارئ وآخر في قراءة نص ما، واعتماد ذلك على اختلاف التقاليد والأعراف بين قارئ وآخر، مما يثير بالضرورة تساؤلات سياسية وعقدية، فإذا كان القارئ يعيد كتابة النص (حيث يبنيه بالطريقة التي تحلو له)، وإذا كانت المحاولات لإعادة كتابة ما يعنيه المؤلف تعتبر نوعية خاصة من إعادة الكتابة لنص ما؛ فإن أي قراءة ماركسية لأي نص (يعيد بناءه القارئ)، لا تصبح بعد ذلك تحريفاً غير شرعي، بل عملية شرعية جداً، ومظهراً أدبياً عادياً))[٢].

ومن الانتقادات التي توجه إلى البنيوية هي ((أنها تستعمل باستمرار مفاهيم وأفكاراً من حقول أخرى كثيرة من أجل الهيمنة على الأدب، من هذه الحقول: الألسنية، الفلسفة، علم الإنسان، التحليل النفسي،

---

[١] الموقف من الحداثة ومسائل أخرى، د.عبد الله الغذامي، ص٨٧.

[٢] النظرية والنقد بعد البنيوية، جوناثان كولر، ص٣٨.

الماركسية))[١]، فالبنيوية تأخذ كثيراً من أفكارها من الماركسية، لا بل إن من الباحثين من يدعي ((أن ارتباط البنيوية ارتباطاً عضوياً بالماركسية نظرياً وتطبيقياً لا يخفى على أحد من النقاد العرب والغربيين))[٢].

ويقارب بعض الباحثين بين هذه الفكرة وبين الفكر الباطني، بل يجعلها أخطر، فيقول: ((هذه الفكرة الحداثية أخطر من فكرة الباطنية، التي تجعل للنص ظاهراً وباطناً، فالظاهر ما يفهم من النص، والباطن ما يفهمه الباطني، حسب أهواء المكر الباطني. هذه الفكرة الحداثية تطلق لكل ذي هوى أن يفهم النص على ما يريد، ويفضي هذا إلى التلاعب الخطير بالنصوص، وقد يصل إلى التلاعب بالنصوص الدينية، في كلام الله، وأقوال رسول الله ﷺ بدعوى أن النص تراث قائم بذاته، قابل لأن يكون له مفاهيم مختلفة باختلاف إدراكات الناس، وتعدد أشخاصهم))[٣]. وأعتقد أن هذا المفهوم غير مقبول عقلاً، لاسيما إذا كان على إطلاقه، أي بدون ضوابط في الفهم، وخاصة وخصوصاً إذا كان في نص شرعي.

وقبل ختام هذا المبحث لابد من الإشارة إلى أن بعض الحداثيين يذكرون أن ما يقولونه، وما يتصف به مذهبهم من ثورة على المألوف، وخروج على الثابت المتوارث، وفهم متعدد للنص، وغيرها، كل ذلك لا يريدون به الخروج على الإسلام، أو الطعن فيه، فهم على حد قولهم ((يفرقون بين الإسلام الدين، والإسلام الدولة وأن انتقاد الثاني لا يعني الكفر بالأول أو الخروج عليه. وأنك في الثاني ستجد كثيراً يقال أو

---

[١] النظرية والنقد بعد البنيوية، ص١٩.

[٢] الحداثة مناقشة هادئة لقضية ساخنة، محمد خضر عريف، ص٦٧.

[٣] صحيفة الندوة ع ٩٤٥٢، ٢٦-٧-١٤١٠هـ ، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص١٥.

يعترض عليه، حتى في أعظم أزمنته، بينما لا تجد في الأول إلا ما تنحني له تقديساً وإجلالاً وإيماناً خالصاً، فأنت تملك أن تفصل بين الإسلام الدين، والإسلام الدولة، حفاظاً على الأول، حين تستنكر أن يكون الثاني نموذجاً للإتباع، أو حين يعجزك أن تجد صلة واضحة بين هذا وذاك، فالأول رسالة والثاني دنيا، وقد أنزل الله في الرسالة ما ينظم شؤون الدنيا في أبواب، وترك للبشر أبواباً دون أن يفرط في الكتاب من شيء، وإنما يترك لهم أموراً تختلف باختلاف الأزمنة، لا يترك لهم فيها إلا قواعد عامة، إن اتسع أفقهم أخذوا من غيرهم وتأقلموا مع زمانهم، دون خروج على صحيح الدين أو كفر به))[١]. أو بكلمات أخرى هم يعارضون –أو على الأقل بعضهم– فَهْم الفقهاء للدين، الذين نُزِّل فهمهم –على ما يعتقدون– محل النص الأول. فيقولون: يجب التمييز ((بين ما هو من الإسلام أصلاً، وما يكون منسوباً إليه ومحسوباً عليه، في حين أنه ليس من صميم الدين))[٢]، لا بل إن منهم من يصرح بأن ((الإسلام، الذي يتعبد به المسلمون اليوم في أربعة– على حد تعبيره– أقطار الأرض، ليس هو إسلام الله والرسول، ولكنه إسلام الفقهاء والمذاهب التي وضعت منذ أكثر من إلف عام))[٣]. فهم أو على الأقل بعضهم لا يرى انتقاد أصل الدين، ولكنه يرى أن للدين أصولاً وقواعد ثابتة– وهي قليلة جداً بنظرهم– والباقي يكون لكل أناس في زمانهم ومكانهم النظر فيه، وفهمه، وتطبيقه، وفق ما يقتضيه واقعهم.

---

[١] قبل السقوط، د.فرج فودة، ص١٣، ١٤.

[٢] الحجاب، جمال البنا، ص٨٥.

[٣] المصدر السابق ص٩٥.

وأنا هنا لا أذكر ذلك مؤيداً ومناصراً لقولهم، فهذا الكلام غير مقبول من وجهة نظر الفكر الإسلامي، ولاسيما إذا كان على إطلاقه، ولكن أنقله لأن ذلك ما يقتضيه أي بحث علمي ينشد الإنصاف. لأن القول أن جميع مفكري الحداثة يرفضون الإسلام جملة وتفصيلاً، هو قول مجانب للإنصاف، كما القول بعكس ذلك.